ماى مدين

بقلم

الدكتور محمد كامل حسين

قضى موسى ليلته فى هذا المأوى الجبلى الصغير . ولما طلع عليه الفجر ايقظه من الهواء البارد فدب فيه بعض النشاط وقام من مضجعه فوجد بجانبه قليلا من الحلوى التى ذاقها بالامس . وقليلا من الشراب الذى جرعه اياه صاحباه وهو لايكاد يعى ما يفعل فأخذ منهما ماشاء ان يأخذ وكان عهده بمثل هذا الشراب فى مصر شيئا متخمرا يتناول الناس منه الكثير يعبونه عبا. وكان يعاف هذه الكثرة وذلك الطعم . وكان يكره الأثر الذى يتركه فى الجسم من امتلاء وفى الرأس من خمول . اما هذا الشراب فهو قليل جيد يشفى من الخمول والتعب وطابت نفسه اليه .

وسمع صوتا موسيقيا يأتيه من مكان قريب حيث تقام الصلاة وعرف ان هذا الصوت يخرج من قطع من المعدن مختلفة الأطوال تطرقها العصا فتخرج منها انغام بسيطة تعجب وان لم تطرب. وكان عهده بالموسيقى فى مصر صاخبة عالية تطرب وتهيج وتدفع الى النشوة والرقص والابتذال أما هذه الموسيقى التى لاتعدو ان تكون ايذانا ببدء العبادة فان فيها جدا وصرامة . وقد لا تكون مما يعجب المترفين . ولكنها على كل حال جميلة طيبة . وكان لها من هذا المكان وهذا الوقت وتلك الغاية ما جعل لها عليه أثرا بالغا لم تبلغه من نفسه الفنون العالية فى الجو الكدر .

ولما طلع النهار جلس فى مكانه فوجد أمامه نافذة تطل على الوادى . ورأى اشجارا كثيرة تحمل أثقالا من الفاكهة. واعجبته اشجار الزيتون واوراقها البراقة وجذوعها الملتفة كالثوب المعصور . ولم يكن يعرفها فى مصر . ورأى زرعا أخضر بهيجا . وعهده بالخضرة فى مصر يشوب جمالها مايعلوها من تراب يذهب ببعض نضرتها . وارتاحت نفسه الى هذا الذى رآه . ولم يفتقد الا الماء الجارى الفسيح كما كان يراه فى خير انهار الدنيا واجملها وفرح لهذا الذى رآه فى يومه الاول . فكل ما رآه يبشره بما كان يحلم به ، حياة هادئة وان تكن صغيرة ، كريمة وان تكن بسيطة ، طيبة وان تكن محدودة . وخيل اليه ان ذلك اشبه بطبيعته من الحياة العارمة القلقة التى عرفها فى قصر فرعون والتى جمعت بين العظمة والشر ، والبهجة والذلة ، واللذة والكدر . والتى لم يذق الا آلامها ولم ينعم بلذاتها ، والتى كانت عليه جحيما والناس يحسبونه فى نعيم يحسد عليه.

واقبل عليه صاحباه فوجداه فى حال طيبة . وسألهما عن المكان الذى يصدر منه صوت الموسيقى التى سمعها . فقالوا له .

ـ هذا هو المعبد الذى تتعبد فيه

ـ ولكنه صغير جدا لا يتسع لاهل قريتكم مهما تكن صغيرة .

ـ انما يأتيه من يرتكب ظلما أو يؤذى احدا . وهؤلاء قليلون . ولا يجتمع فيه اهل القرية الا اياما قليلة كل عام . تقدم القرابين للآلهة . عند ذلك يعفو المظلوم عن الظالم . ويعتذر المسىء الى من أساء اليه . ويتلقى المحسن مظاهر الاحترام والحب منا جميعا .

ـ وهذا كل ما تبغون من التعبد ؟

وفرح موسى بهذا الحديث . وظن أن حياته المستقبلة ستكون خلوا من مظاهر الظلم والدنس التى آلمته ونغصت عليه حياته كلها وهو فى مصر وكأنما وطن نفسه على أن يعجبه كل ما هو بسيط طيب ولو كان بدائيا .

ثم قدما اليه غداءه . واسترد قوته ونشاطه . وطلب اليهما أن يقوداه غدا الى حقولهم لعله يعمل عملا يجزيهم به على ما قدموا اليه من حسنات .

ولما كان عصر ذلك اليوم صعد الى جوار الهيكل أطفال يلعبون ويمرحون . فلما علا صوتهم خرج اليهم وكان من قبل لا يحتمل صخب الاطفال ولا يطيق لعبهم واقبل عليهم فرحا بهم كأنه لم ير اطفالا من قبل . وهرعوا اليه فأخذ يلاعبهم ويرفعهم الى ما فوق رأسه فى سهولة ،وهم يصيحون ويضحكون . وبلغ سرورهم غايته حين حمل اثنين منهم فى وقت واحد بكلتى يديه .

وجرى الاطفال الى أمهاتهم يصيحون

ـ هنا رجل غريب . هو قوى جدا جدا . يحمل اثنين منا فوق رأسه فنلتقى فى الهواء وقال أحدهم فى براءة الاطفال وصراحتهم .

ـ ولكنه لا يتكلم كما نتكلم . يتكلم بطيئا جدا . ويقف احيانا عن الكلام حتى نجد له نحن الكلمة التى يريدها وأسرها موسى فى نفسه . وكان هذا العجز يؤلمه أشد الالم . وهاهو فى اول حياته الجديدة لا يستطيع اخفاء عجزه هذا حتى عن الاطفال .

ولما جن الليل نظر من نافذته الضيقة الى الوادى وقد سكن فيه كل شىء حتى حفيف الشجر وصوت النسيم . ورأى أمامه الجبال العالية وقد اكسبها نور القمر جمالا خاصا . يضيئها من ناحية ويلقى ظلالها على الارض من الناحية الأخرى ظلالا تطول وتقصر حين تسقط فى الوديان السحيقة او القريبة . ورأى قمم الجبال تخط لنفسها أشكالا جميلة حين تعترض السماء المنيرة . وبهره هذا الجمال الذى لم يكن له به عهد .

وظن موسى ان مثل هذا المكان ومثل هذه الليلة يبشر أنه ببدء حياته الجديدة التى يرجو ان تكون حياة هادئة بسيطة والتى يأمل ان تصفو له صفاء يقطع ما بينه وبين ماضيه قطعا باتا .

وما أكثر الذين يحلمون بمثل هذا الأمل حين تشتد بهم الخطوب وحين تضطرب حياتهم وتضل خطاهم. يودون لو يستطيعون أن يبدأوا حياة جديدة تخلو من أخطاء الماضي كلها. ولكنه أمل بعيد المنال. ذلك أن أكثر الناس يجدون أنفسهم وقد أخذ ماضيهم بأقفيتهم يرغمهم على أن يسيروا سيرتهم الاولى. تعلق بهم أخطاؤهم. ويلصق بهم من طباعهم وشخصيتهم ما يدفعهم الى المنزلقات القديمة. ولا يقطع ما بين الماضي والمستقبل في حياة الناس الا حادث عنيف جدا. وظن موسى انه وقع له ذلك الامر البات حين هرب من مصر الى هذا المكان البعيد. ولعله أدرك أن مالقيه من ظلم وذل وتعب لم يكن شرا كله. ولعل نفسه أن تكون قد طابت لهذا كله اذا كان ثمنا للحياة الطيبة التي هي كل آماله.

وجاء اليه صاحباه في اليوم التالي. وذهب معهما الى البساتين. ورأى الذين يفلحون الارض بفئوسهم. وأراد أن يعمل كما يعملون. ولكن الفلاحين ضحكوا حين رأوه يضرب الارض بفأسه وتبينوا أنه ليس خبيرا بمثل هذا العمل. وقالوا له أن يديه الناعمتين تدلان على أنه لم يتعود الفلاحة. وأن وجهه لم تلوحه الشمس كما لوحت وجوههم. وأن هناك عملا كثيرا يستطيع أن يقوم به غير الفلاحة.

ولم يفهموا سر اصراره على أن يعمل بفأسه. ولم يقدروا انه يريد أن يتصل بالارض اتصالا قويا يبدأ من حيث يبدأ أصغر الناس. وأنه يريد أن يحترم كل ما كان يحتقر في مصر. لعله أن ينتهي به الامر الى احتقار كل ما كان يحترم في شبابه من مجد أو غنى أو سلطان. ولعله أراد أن ينسى احترامه للتفكير والعلم والذكاء.

وعلم منهم انهم لا يعرفون كيف يوجهون الماء الى حيث يريدون. وأن ماء كثيرا دافقا يذهب الى أسفل الوادي لا يستطيعون أن يحولوه الى حقولهم. فكلما وضعوا في سبيله حاجزا احتمله الماء ووجدهم لا يعرفون ترتيب القنوات. فهم يرهقون رجالهم ونساءهم حين يرغمونهم أن يجلبوا لهم الماء من البئر الكبيرة الى الحقول ومنها ما هو بعيد. فلما جاء الى البئر وجدهم يرفعون الدلو بأيديهم وهو ثقيل. وعزم موسى أن يدل هؤلاء البدائيين على ما يخفف اعباء الفلاحة المرهقة وعزم أن يدلهم على طريقة هرمية في بناء سد تتجه به مياه السيل الى بساتينهم. وأن يعلمهم كيف يضعون عجلة من جذع شجرة فوق البئر تعينهم على رفعه. ولم يشك انهم سيحمدون له عمله حين يقيم لهم ما أراد اقامته. وأن ذلك سيجعل له عليهم فضلا يجزيهم به على ايوائهم له وهو عنهم غريب.

وكانت هذه البئر التي لم ينضب ماؤها قط. محور حياة القرية يجتمع حولها رجال ونساء يسقون ويتحدثون. حولها يدور سمرهم في المساء وعملهم بالنهار. ووجد حولها قوما كثيرين يدلون بدلائهم وينزعونها في عسر. ووجد بعيدا عنهم امرأتين معهما اناءهما فارغا وهما تنتظران أن يفرغ الناس ثم تحملان اناءهما الثقيل الى منزلهما.

ونظر اليهما فلم يفضا الطرف دونه

وشجعه ذلك على أن يتحدث اليهما . وعلم أنهما تنتظران حتى يفرغ الرجال. وانهما وحدهما يقومان بخدمة أبيهما وهو شيخ كبير . ولما اخذ موسى الاناء وذهب الى البئر وجد رجلين يتعاونان على رفع دلو ثقيل . فنحاهم موسى ورفعه وحده بيديه القويتين . ثم ملأ اناءه والناس يعجبون منه ويتساءلون عن هذا الغريب . ولم يفت ذلك النساء القائمات على البئر واللائى لم يخفين اعجابهن به .

ثم ملأ اناء الاختين وحمله وسار معهما حتى بلغوا دار أبيهما . وتاهت زيفورا وأختها الصغرى على نساء القرية أن كانتا موضع عناية موسى . وقالت زيفورا لأختها انى سأحمل أبى على أن يخطبنى له . ودهشت الأخت لذلك وقالت لشقيقتها الكبرى . أين حياؤك واين خفرك وكيف تبدين هذه الرغبة فى رجل غريب . وليس من عاداتنا أن نعلن حبنا للرجال على هذا النحو .

وكان موسى قد راى من قبل نساء جميلات فاتنات فى ثياب مزركشة فيها الذهب والحجارة الكريمة يخطرن فى سفن جميلة تتهادى فوق سطح الماء على ضوء القمر الذى ينعكس نوره على الماء فتكسره الأمواج الصغيرة . وكان هؤلاء النسوة يقبلن عليه يردن ان يخلو بهن فيأبى ذلك ويربأ بنفسه عن لقائهن . وكان فتنتهن البالغة لا تفريه أما اليوم فهو مشوق الى هؤلاء النسوة راغب فيهن على ماهن عليه من بساطة .

ولما نظر الى زيفورا خجلت منه وسقط ثوبها فرفعته وطوته حولها فى حركة رشيقة فيها حياء واغراء . ورأى موسى فى هذه الحركة جمالا اعجبه وعرف ما يستطيع ان يصوره الثوب من جمال واغراء حين تحاول المرأة الجميلة أن تستر جسمها فلا يزيده ذلك الا فتنة وسحرا . واخذ بقلبه هذا الأغراء البسيط الذى لم يصقله الدرس ولم يهذبه الفن . ولم تشبه شوائب الحضر .

ومع ذلك مر بخاطره فى تلك اللحظة صورة فتاة حبشية كانت تألفه كما ألفه أطفال مدين وتلعب معه كما كانوا يلعبون وكانت تدل عليه كما تدل المرأة الشابة التى جمعت بين الطفولة والاغراء فى ذلك العهد الدقيق الذى تتحول فيه الطفلة الى فتاة . ولم يكن ذلك الا خاطرا عابرا لم يعره موسى اهتماما كثيرا .

ولما همت زيفورا ان تخبر أباها برغبتها ان تخطب الى موسى أرادت اختها الصغرى ان تحول بينها وبين ذلك بذراعها اليمنى . فانتزعتها زيفورا نزعا عنيفا تألمت له اختها ألما شديدا . وازعج ذلك زيفورا فاعتذرت لاختها وطيبت خاطرها . ولكن الذراع ظل يؤلم الأخت زمنا طويلا .

واقام موسى لأهل مدين سدا يحجز الماء وعلمهم سر العجلات والشادوف . واصبح موضع احترام أهل مدين واحبوه حبا جما . واستنصحوه فى كل ما يعرض لهم . واصبح فيهم سيدا مطاعا محبوبا وخطبت زيفورا الى موسى وزفت اليه وكان يوم فرح عام شمل أهل القرية جميعا وسعد موسى غاية

السعادة واستقامت حياته بعد أن اضطربت اضطرابا مزعجا منذ أول عهده بالحياة واعجبه أن يعيش هذه العيشة الهادئة الصغيرة . ولم يكن يظن انه سيحظى بمثلها أبدا .

وبينا هو فى بستانه يوما جاءته أخت امراته وهى لا تزال تشكو الم ذراعها وقالت له .

ـ يسرنى يا موسى ان اراك سعيدا غاية السعادة فى حياتك هذه بيننا .

ـ ولم لا اكون سعيدا وقد عرفت فيكم الحب والعطف والهدوء والاطمئنان ولم اكن ارغب فى غير ذلك حين كانت الحياة حولى صاخبة عظيمة .

ـ ولا اشك أن زيفورا وهبتك من الحب كل ما ترغب فيه . وكنا نظن ان فيها طيبة نفس وهدوءا وحكمة .

ولكنا كنا نحسب أن فى طبعها برودا . وأن عينيها لا تشعان الشوق والرغبة . وهما عنصران من عناصر الحب . بل هى لا تعرف شيئا عما يسميه الناس غراما .

ـ ويعجبنى منها هذا فانا لم اكن من رجال الحب . ولا من أهل الغرام الذى يتدله به الناس . وحبها هذا الهادىء هو كل ما ارغب فيه .

ـ وهى لاتفار عليك . والغيرة عندنا نحن النساء شىء لا يتم الحب بدونه . ولو رأتنى بين ذراعيك الآن ما حفلت بذلك . ولا عنفتك عليه .

ـ ويرضينى منهـا ذلك فالغيرة داء المحبين . وهى اكثر ما تكون شرا حين لا تكون الا خيالا لا حقيقة له ونظر اليها موسى فجأة وكأنه ـ على جهله بعواطف النساء ـ فهم أن كلامها له خبىء وانها تكتم حبا عنيفا غلبتها عليه أختها الكبرى دون أن تكون أهلا لهذا الحب ـ وفطن الى أنها تغريه بشىء لا يقبله لنفسه أبدا . ونظر كل منهما فى عينى الآخر فكان فى عينيه دهشة واستنكار واباء . وفى عينيها بريق ساطع يشف عن وشل يكاد يذرف دمعا . وكأنها تلتهمه التهاما وهاله ما رأى من شدة رغبتها اليه رغبة تختلف عن الرغبة التى رآها من قبل عند المبتذلات فى قصر فرعون . تلك كانت رغبات جسمية جارفة اما هذه الرغبة فكانت جسمية قلبية معا . ولعله لو كان مرهف الحس ملتهب العاطفة ما استطاع أن يقاوم جمال هذا الحب العارم . ولكنه كان عاقلا حازما شديد الحرص على ما كان يعتقده واجبا خلقيا فكان أن كاد يعرض عنها . ثم دارت بها الارض فارتمت عليه مغشيا عليها . وحملها موسى بين ذراعيه القويتين . فسرت فى جسمها نشوة جميلة كاجمل ما تكون النشوة وذابت نفسها لهذا الذى اعتراها . وطوقت رقبته بيديها وكانت يدها اليمنى من قبل لا تتحرك الا قليلا . وحملها موسى وهو قلق اشد القلق أن يكون اغماؤها نذيرا بشر يصيبها . وكانت هى تقدر ان هذا الاغماء فرصتها التى تستطيع أن تتمتع فيها بما لا تقدر عليه وهى واعية . وأن العرف والاخلاق تفرقها ماهى فيه من نشوة خفية آثمة لو صارحت الناس بها لاحتقروها . وهى الآن يلذها ما هى فيه دون أن يعلم أحد عنها شيئا يشينها بل هم يجاوزونها على اثمها هذا بالعطف مادامت فاقدة الوعى .

وجاءت اختها الكبرى تلهث حين علمت ما حدث لأختها . وحنت عليها حنوا صادقا . وقدرت الصغرى هذا العطف وحزنت الا تكون هى أيضا بريئة مثل زيفورا ولما أرادت زيفورا حين افاقت اختها أن تمتحن زراعها اليمنى فاجأتها هذه بضربة من يدها هذه كأنها تقول لا تفرحى بنصرك على فانى سليمة . وكان فرح زيفورا عظيما أن رأت اختها وقد شفى ذراعها تماما.

واضطربت نفس موسى لهذا الحادث اضطرابا شديدا حين علم ان فى كل بيئة طاهرة أو عابثة اعماقا للنفس لا قبل لأحد مهما ظهر أن يتغلب عليها الا ظاهرا .

* * *

لم يكن موسى يعرف النساء على كثرة من لقى منهن . فلم يكن يقدر ما يخفين ولا يفقه كثيرا مما يظهرن ولم يكن بين طبيعته وطبيعتهن تجاوب عاطفى داخلى تلقائى . على حين أن اكثر الناس ممن هم اقل منه ذكاء وفهما يدركون الشىء الكثير مما كان يفوته من طبائع النساء .

فلما رأى زيفورا عند البئر اطمأنت نفسه اليها . وعرف انها طلبته . ورغب اليها . بقلبه وعقله دون أن يكون غرامه بها عاطفة عنيفة . وأقبلت هى عليه بكل جوارحها على انه أمل لم تكن تحلم أن يتحقق لها على هذا النحو .

وكان هو اعقل الناس واكثرهم حكمة ، واخلصهم نفسا . وكانت هى اطيب الناس وأرقهم قلبا . واكثرهم ولاء لمن تحب. وأحب كل منهما الآخر كأشد ما تسمح له طبيعته وأسلوبه فى الحب .

ووجد كل منهما فى رفيقه ضالته وأمانيه . وجد فيها ما لم يجده فى غيرها من النساء اللائى لقيهن فى مصر . وقدر لها عطفها البالغ عليه . وكان فى أشد الحاجة الى هذا العطف. ووجدت فيه ما اعجبها قوة وأمانة وذكاء وشدة عزم . فكانت هى محققة لآماله كلها . وكان هو محققا لآمالها كلها .

ومع ذلك دب بينهما خلاف لم يفهما له سببا . ولم يكن هناك شك أن كلا منهما يحب الآخر ولم يكن هناك شك فى أن كليهما بعيد عن أن يوصف بالحمق . ولم يكن أحدهما ملولا ولا عابثا .

ولم يمض الا وقت قليل حتى اصبح حديث الحب بينهما حديثا عجبا يبدأ عذبا رقيقا ثم يتحول رويدا رويدا فاذا به يسير الى الضيق والضجر . ثم يشتد ذلك ويثير الاستياء ثم السأم ثم الغضب . وهما لا يريدان من ذلك شيئا . بل يظن كل منهما انه انما يبث للآخر حبه على النحو الذى يراه . وان رفيقه مخطىء حين لا يقدر العاطفة القوية التى تحمل الآخر على هذا الحديث .

واخذت تسأله كثيرا عن ماضيه .

ـ حدثنى عن حياتك الصاخبة فى قصر فرعون . وعن مغامراتك فيه .. ألم تكن عندكم ألوان شتى من النساء الفاتنات اللاتى اتقن الاغراء حتى ليتمع

فى حبائلهن اعظم الرجال . واكثرهم زهدا فيهن . وكيف كان حالك مع هؤلاء

ـ لم تكن لى معهن مغامرات .

ـ وكيف يكون ذلك ؟ السنت رجلا كالرجال وهن نساء كالنساء ؟ . واى عيب عليك لو اعترفت بما فعلت بهن وما فعلن بك ؟

ـ ولكنى لم افعل شيئا .

ـ وهل انت وحدك بين الرجال تتابى عليهن ؟ هذا غير طبيعى .

ـ وانا لست طبيعيا .

ـ انك تخفى ما لا داعى لاخفائه . فالرجال كلهم سواء فى شأنهم مع النساء وكلهم يجرون وراءهن حيث يجدونهن . فما الذى يحملك على انكار ماضيك فتجعل بينى وبينك حجابا . الا تعلم انه لا يتم الحب بين اثنين حتى يكون كل منهما عالما بكل ما فى حياة الآخر .

ـ لا اريد ان احجب عنك شيئا انما اريد ان اقيم حجابا بين حياتى الحاضرة وحياتى الماضية .

ـ لا افهم لذلك سببا الا ان يكون ماضيك مثقلا بما لا تستطيع ان تعترف به .

ـ لعله مثقل بما لا احب ان اذكره ولو كان خيرا .

ـ معميات لا افهمها . وخير لنا ان تعمل على ان تشرحها لى حتى لا يكون بيننا ضباب من شك او جهل .

ـ فاذا كنت انا لا افهم حياتى الماضية . فكيف اشرحها لغيرى .

ويمضى الحديث بينهما على هذا النحو . يبدأ عذبا رشيقا شائقا فى دوافعه واسلوبه . ثم ينتهى مريرا مؤلما .

وكان موسى لا يدرى سببا يحملها على هذا اللون من الحديث . ولم يفهم سر اصرارها عليه مع ما هو واضح من ضجره به . ولم يفهم انه قد يرضيها ان تكون قد اعجبت رجلا خبيرا بالنساء عرف الكثيرات ففضلها عليهن . وانه لا يرضيها ان يكون قد احبها عن جهل أو عن ضرورة حين لم يجد امامه عنها بديلا . ولم يكن يدرى ان بحثها عن فتنة الحياة فى مصر قد يكون مصدره الرغبة فى أن يعرف ما يعجبه وما لا يعجبه من مفاتن النساء وكانت تظن فاتنات مصر بلغن الغاية فى الاغراء فلعلها تحب أن تتشبه بهن او ان تختلف عنهن حتى يكون اغراؤها له خاصا بها .

ولعله ان يكون مصدر الخلاف بينهما انه كان يعجبه منها ما لا يعجبها من نفسها . ولعلها كانت تود ان يعجب بفتنتها واغرائها أكثر من اعجابه بطيبة قلبها واخلاصها . ولعله كان يود أن تحبه لغير قوته وامانته . اذا كان هذا حقا مصدرا للخلاف بينهما فهو دليل على قوة شخصية كل منهما قوة تابى ان تلين للآخر مهما يكن حبهما قويا خالصا

كان موسى رجلا كاملا ليس فيه ذلك القدر الصغير من الأنوثة الذى يجعله يفهم النساء بقلبه لا بعقله وحده

وكانت زيفورا امراة كاملة ليس فيها ذلك القدر الصغير من الرجولة الذى يجعلها تفهم الرجال بعقلها لا بعواطفها وحدها ذلك أن فهم الرجال النساء بالعقل وحده محال . وفهم النساء الرجال بالعواطف وحدها محال .

وهكذا لم يفهم موسى شيئا مما تصبو اليه نفس زيفورا وهى أعز الناس عليه . كما لم تفهم هى ما يؤلمه من حديثها وهو أعز الناس عليها .

وأكثر الذنب فى هذا الخلاف يقع على موسى من غير شك . اذ كان لايفهم رغبة النساء أن يؤكد الرجال لهن انهم لا يزالون يحبونهن مهما يكن ذلك واضحا . وكان لا يفهم أن اتهامها له بالباطل انه يتقرب الى النساء عندما تتاح له فرصة لذلك وانه كان فى مصر زير نساء لم يكن حماقة منها ولم يكن لغيرتها من هؤلاء النسوة . بل كان ذلك رغبة منها فى الاحساس بالنصر . بل لعله نوع من التحية تقدمه المراة لأعز عزيز عليها كأنها تقول له ان كل امرأة عرفتك لابد لها من أن تحبك .

أساء موسى فهم ذلك كله . وضجر بأحاديثها حين كانت تتحدث فى مثل هذه الأمور . وكان ذلك كثيرا . فهى لا ترى ما يمنعه أن يتحدث عن الماضى كما يتحدث الناس جميعا . وكانت تجهل سبب المه حين تذكره بماضيه ولم يكن فى هذا الماضى ما يعيبه . ولكنه كان حريصا ألا يذكره أبدا . يريد بذلك أن يقطع ما بينه وبين حياته الاولى . وكان حديثها عن مغامراته ينكىء جروحا قديمة كادت تندمل ، جروح الاخفاق التام الذى أصيب به

من جراء عناده واصراره على الا يعيش عيشة اقرانه . كان ينفر من اللائى يتقربن اليه لما فى تقربهم من ابتذال يقرب من القذارة . ولم يعرف كيف يتقرب الى البريئات اللائى يتعففن عن الابتذال جهلا منه بالاشارات الخفيفة والرغبات الخفية التى لا تزيد على نظرة عابرة أو شبه ابتسامة وهو كل ما تستطيع ان تفعله الخفرات . بل كان هذا موقفه من الحياة كلها لا يقبل على ما يتاح له منها . ولا يعرف كيف يبلغ منها ما يوافق طبعه الأبى .

يقول علماء الطبيعيات ان الانسان — فى ظروف تجريبية بعينها — يستطيع اذا ابتلت يده بالماء أن يقبض على الجمرة المسعرة فلا تحترق يده بنارها . ذلك انه يكون بين الجمرة واليد طبقة رقيقة من البخار وتمنع أن يصيبها حر النار . ويقولون ان الذين يسيرون حفاة على النار يفيدون من هذه الظاهرة الطبيعية .

وكذلك يحدث أن يكون هناك قوم يعيشون عيشة صاخبة عنيفة يتمتعون فيها بألوان من السرور واللذة القوية . خاضعين لعواطفهم المتأججة ورغباتهم العارمة تعتورهم شهواتهم الجامحة من من حب اللذات والغنى والسلطان . ثم يكون بينهم أفراد لا يحترقون بهذه النار . ولا يشعرون شعورا حادا ببهجتها كأنهم فى معزل عن لذات الحياة وهم فى أوسط معمعتها ولا يكون ذلك لنقص فى احساسهم ولكنها هذه الطبقة العازلة التى تحميهم شر الجموح والشطط فى ما يتمتع به الناس .

وكان موسى من هذا الصنف من الناس وكان يعرف ذلك من نفسه . وكان يحسب ان هذا من آثار حياته المضطربة . ولم يقدر أن ذلك طبع فيه لا تستطيع حوادث الحياة أن تغير منه شيئا .

وكانت هذه الطبقة العازلة بين نفسه وبين الحياة الصاخبة من حوله هى الاباء . كان يأبى كثيرا مما يقبل الناس عليه متلهفين . ودفع ثمن هذا الاباء غاليا حيث حرم نفسه كثيرا مما هو طبيعى فى الشباب وليس كل ما فى الشباب شرا . وترك فيه الحرمان أثرا بالغا .

لم تكن له طفولة . ولم يكن له شباب . وها هو فى كهولته يقدر أن ذلك كان خطأ منه . وانه أسرف على نفسه بهذا الاباء والترفع لغير ما غاية يراها . وأن الارتفاع عن العواطف الانسانية قد يكون محمودا فى عهد الحكمة والوقار . ولكنه حين يكون فى الشباب قد يحرمهم كثيرا من مقومات الحياة الطبيعية .

ولكن الله أراد له ذلك . واعده اعدادا عنيفا ليتلقى عن قريب الوحى والحكمة . واذا كان قد ظن انه أخفق رجلا فسيكون بعد قليل رسولا نبيا .